الانحطاط والعدميّة عند "نيتشه"

فتيحة بلعكروم
المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبّار ❖ قسنطينة ❖ الجزائر

ملخص

إن مصطلح العدميّة، حمل تاريخيًا عدة دلالات، بحسب تنوع المذاهب الفكرية. لكنه دخل الفلسفة في نهاية القرن الثامن عشر، نتيجة نقاش دار حول مثالية "فيخته" "Fischte". فهل حافظ مصطلح العدميّة على هذه الدلالة في التوظيف النيتشوي؟

يؤكد نيتشه أن العدمية هي حاصل تقليد الفكر الأخلاقي المسيحي، ففي نظره المسيحية مقدمة لمطلقية المعنى، كمسلمة لها، وليس نتيجة تفككها وانحلالها، كانت نشأة العدمية. إنها منطق الأزمة التي أصابت الحضارة والإنحطاط هو الصورة المرضية لأزمة العالم الحديث.

لكن مصطلح العدمية قد طغى في كثير من التفسيرات والتأويلات على لفظة الانحطاط، فلم تكن لهذا الأخير امتدادات كافية للدلالة التي حملها في نصوص نيتشه ومن ثمة كان تساؤلنا حول حقيقة العلاقة القائمة بين الانحطاط والعدمية في الجهاز المفاهيمي النيتشوي؟

Abstract

The concept of nihilism entered philosophy at the end of the eighteenth century with the debate on the idealism of "Fischte" and seemed to have kept its meaning up to "Nietzsche, who stipulates, on the contrary, that Nihilism is the product of the tradition of moral and Christian thought. According to him, the introduction of the absolute of the meaning of its postulate, not from its disintegrations, that nihilism was born. The former qualifies the generalisation of a morbid phenomenon of decay. "Nietzsche" tries, in a way, to locate and regroup the existential conditions that have prepared the irruption of nihilism that characterizes the collapse of the ideology on which decadence had built its reign. Is this term sufficiently extended even though it remains very influenced by the history of Christian Europe! Much more influenced by the history of Christian Europe, the term nihilism seems to be able to encompass that of decadence, which denotes above all its most characteristic manifestation.

Keywords: Nihilism, disintegration, Nietzsche, decay.

مقدمة:

يعتبر "نيتشه" أن فلسفته موجهة للقرنين التاليين، إنه مفكر النهايات بلا منازع، ويرافق استباقه الزمني هذا نقد جذري للحداثة في مختلف أوجه تحققها في المجتمعات الغربية. تميز من خلاله بنظرة بيولوجية إكلينيكية في تحري تاريخ الإنسانية الماضي، ومظاهر الانحلال والانحطاط الأوروبي المعاصر، معلنا نقمته على أوروبا باتخاذ الموقف الذي يؤهله إلى إحداث ثورة في ميدان الفكر.

إن موقف "نيتشه"، يبدو واضحا جليا في كتابه "اعتبارات لا زمنية": التمسك بالحياة والفتك بالماضي والعصف به أبدا. لا لشيء إلا لأن حاضر أوروبا وماضيها هو حاصل أفول أوثانه وتهافت قيمه، وهذا ما جعل "نيتشه" لا يأبه بإنجازات الأزمنة الحديثة. فثقافة العصر في عرفه هي ثقافة انحطاط، وكل القيم والمبادئ التي تؤسس لهذه الثقافة كالعقلانية والديمقراطية والتقدم هي مبادئ واهمة وزائفة، تبعدنا في حقيقة الأمر عن أوروبا الأصيلة والوحيدة، إنها هوس قاد أوروبا إلى الانهيار.

يقول "نيتشه" في الشذرة 794 من إرادة القوة: "إن ديننا وأخلاقنا وفلسفتنا ليست إلا أشكالا لانحطاط الإنسانية" والحركة المضادة لذلك الانحطاط هو الفن". وعليه ألا يمكن أن نعتبر فكر "نيتشه" لحظة سلب في أقصى ملامحه والعدمية في تمام تحققها، هذه الأخيرة التي شكات في الجهاز المفاهيمي النيتشوي ماهية النقد، من خلال محاولة "نيتشه" قطع الطريق أمام تعميم الإنحطاط بواسطة العدمية، فإلى أي مدى تميز "نيتشه" في استعماله لمصطلح العدمية عن ماعناه الآخرين؟ وإلى أي مدى كانت العدمية في النسيج المفاهيمي النيتشوي مؤشر إيجابي لا مؤشر نفي وعدم فقط؟ ما علاقتها بالانحطاط كظاهرة تحدد بقوة ماهية الأزمة المميتة، التي ضربت أوروبا الحديثة؟

أ. مفهوم الانحطاط:

يشكل مفهوم الانحطاط في الفكر النيتشوي، الموضوع الرئيسي لاهتمامات "نيتشه"، وقمة أزمة الحضارة الغربية، إنها أقصى ما تؤول له العدميّة، وعلى حد

تعبير"ستيبان أودويف" في تعريفه للعدمية: «وهي في شكلها الأقصى، تعبر عن الانتقال إلى الانحطاط، عن المرور إلى العدم».[1]

إن الانحطاط كشكل أقصى للعدمية، موت للإنسان الأوروبي، موت معنوي، فكري، وانتحار للإنسانية، لقد تبخرت أحلام الإنسانية في إيجاد قوى ترتكز عليها لاستعادة الأمل، أمل البحث عن ذاتها، وهاهي الآن تعاني من مخلفات الفكر المنحط، الذي ترك الميتافيزيقا تحبك خيوطها العنكبوتية حوله. وستبدو الإنسانية، إثر ذلك أكثر عجزا، وأكثر خنوعا، والإنسان هو الآخر، يبقى دون مقاومة.[2]

يقول "نيتشه" على لسان "زراداشت": «ساءت الأحوال (الحال) في ذلك الزمن، ياللانحطاط! إن العالم كله لم يسقط إلى مثل هذه الدركة قبل الآن! فقد استحالت روما إلى عاهرة». [3]

إن الانحطاط هو المعنى السلبي للعدمية: إدانة كل عالم التطور، على إعتباره، عالما وهميا، وإبتداع عالم، يقع وراء ذلك، ويكون هو العالم الحقيقي.[4]

فماهو الانحطاط،* وما دلالته في الجهاز المفاهيمي النيتشوي؟

1ـ مسألة الانحطاط من خلال كتابات "نيتشه":

إن المرادف الفيزيولوجي للانحطاط هو الانحلال،"La Dégénérescence"، المصطلح الذي نادرا ما إستعمله "نيتشه"، حيث كان يفضل المصطلح الفرنسي «الانحطاط» "Décadence"، لما يحمله من معنى ثقافي، تاريخي، أكثر منه فيزيولوجي.[5] حيث يقول في كتابه "نيتشه عدو المسيح""Nietzche L'antéchrist": «إن هذا العالم الواهم متجذر في أنانية هذا الواقع، لكن الآن كل شيء أصبح واضحا، بإمكانه أن يجد لنفسه مبررا للهروب من خلال أكذوبة الحقيقة، إنها حقيقة فاشلة، سيطرت فيها أحاسيس الضجر والقلق [...] ومثل هكذا سيطرة تؤدي حتما إلى معادلة الانحطاط».[6]

كما يقول: «هنا وتحت بعض أشكال إرادة القوة، نجد كذلك تقهقرا فيزيولوجيا، انحطاط».[7] وفي نفس سياق استعماله للانحطاط بمرادف الكلمة الفرنسية Décadence

يقول "نيتشه": «إن تأليه الانحطاط يتحول حتما، وبالضرورة إلى آلهة للدين قد أحيلوا فيزيولوجيا، على التقاعد، هؤلاء الضعفاء [...] الذين يسمون أنفسهم الطيبون [...] إن إله الضعفاء، لا يسميهم الضعفاء، بل الطيبون...».[8]

إن ما توحي به هذه النصوص التي حملت في طياتها المصطلح Décadence لتؤكد أن مسألة الانحطاط كمفهوم، مسألة متأخرة، وردت في الكتابات الأخيرة لـ"نيتشه". وأنها كظاهرة أشتغل بها "نيتشه" طيلة السنوات العشرة من حياته الواعية.[9]

فنحن إزاء مفهوم متأخر مقارنة مع مفاهيم "نيتشه" الأخرى، إنه ينتمي إلى الجهاز المفهومي لمؤلفات "أفول الأصنام" و"هذا هو الإنسان" و"نيتشه ضد فاغنر"،[10] حيث استعمل "نيتشه" دائما المصطلح الفرنسي Décadence لقرب معناه من – السقوط– La Chute من اللغة الفرنسية (اللاتينية) عامة والثقافة الفرنسية الباريسية خاصة، التي يعتبرها "نيتشه" أرقى وأوعى بذاتها، في مقابل الثقافة الألمانية للرايش الثاني البسماركي.[11]

لقد شاع هذا المفهوم في نهاية القرن 19، وعرف نجاحا معتبرا في الأوساط الثقافية والفكرية، وكذلك في أوساط البيولوجيين، والمؤرخين، والرومانسيين مثل: "Zola زولا" في فرنسا، حيث أصبح المبدأ الأكثر تفسيرا للأمراض الجسيمة، لا الروحية في مختلف الدراسات البيولوجية، ذات التوجه المادي، بما فيها النظريات العرقية.[12]

لكن الفكرة في حد ذاتها وليس المصطلح، كانت دائما حاضرة منذ الكتابات الأولى، بل منذ بحوثه الأولى حول الفلاسفة الإغريق الأوائل، أدرك "نيتشه" أن المجتمع الذي ينتمي إليه يشكو من أعراض مرض، قد تكون أصوله قديمة.

ولذا يعتبر الانحطاط، إنشغاله الأساسي، وأنه لا أحد يضاهيه في تشخيص أمراض الإنسانية الأوروبية عامة والحديثة خاصة. وهذا ما يعلنه في كتابه "هذا هو الإنسان": «إنني حساس بالنسبة للمكونات الأول صعودا وهبوطا أكثر من أي إنسان آخر، قد وجد حتى الآن، وفي هذا المجال إنني أستاذ بارع (ممتاز) إنني أعرف كلا الجانبين، لأنني كلا الجانبين».[13]

لكن يجدر بنا أن نؤكد حقيقة تاريخية، هي أن اختيار "نيتشه" الدقيق للفظة Décadence (انحطاط)، التي لا يعني بها Dégénérescence، حتى لا يختزل مفهومها، إلى

ظواهر الانحلال، بل كمفهوم ، لا ينفصل عن النظام الحياتي المنحط. حاصل تراكم إنحطاط، يقاس بحركة تاريخية طويلة، تنتهي عند العصر الحديث. وقد لا تنتهي. ذلك أن "نيتشه" رأى في المحاولات التي استشعرت الانحطاط قبله، أو أثناءه، تداخل فيها السبب مع النتيجة، لأن الانحطاط، هو إنحطاط الحياة، ولا ينفصل عنها، إنه شامل.[14] وهذا ما عبر عنه "هيدجر" في عمله "الزمان والكينونة" " être et temps " في قوله: «إن القيم السابقة تدهورت، والمثل العليا سقطت عن عروشها، والأصنام تحطمت، والوجود لا قيمة له، والتاريخ لا منظورات له».[15]

إن في هذا الحد لوضع الانحطاط، شمولية لمعنى الانحطاط وعمقه، وارتباطه الفعلي، بكل ما تعنيه الحياة، ومن ثمة تميزه البليغ في تظاهرته، ودعوته لمثل هذه المهمة، خاصة وهو القائل: «لا يجب أن أتمثل إتجاها معينا، بل يجب أن أعارض كل مريض، كنت أعتقد فيه، بما فيه "فاغنر" و"شوبنهاور"، وكل الإنسانية الحديثة».[16]

لذا وحتى لا يفضي كل صراع ضد الانحطاط إلى تنميته، أو جعله أكثر ضراوة، يجب البحث في سبل، لمواجهته، وعزله عن مختلف التوجهات الأيديولوجية، ويخص بالذكر "نيتشه": الاشتراكيون، لأن الانحطاط، ليست مشكلة أيديولوجية التطور، فهؤلاء عازمون، على معالجة المرض من خلال أشكاله، وهذا معناه: أن مفهوم التقدم في حد ذاته، ناتج عن منظومة مفاهيم الانحطاط، إنه في الأصل نفي للحياة، يعمل على تعريض البشرية، إلى مخاطر أكيدة، نتيجة فشله، في معالجة الأشكال العليا للانحطاط.[17] وفي هذا المضمار، يعلن "نيتشه" في كتابه "إرادة القوة": «أن السؤال الإجتماعي نتيجة للانحطاط».[18] ولتأكيد شمولية معنى الانحطاط» عند "نيتشه"، وتميزه عن ما هو سائد في عصره يضيف "نيتشه" أنه «يجب أن نفهم أن أي نوع من أنواع السقوط والأمراض، قد عملت دوما على التأسيس لمجموع أحكام القيمة، ففي هذه الأحكام، أصبح الانحطاط هو السيد: بحيث لم نعد مطالبون بمقاربة ما يلزم من أزمات، وضائقات حالية نتيجة الانحلال Dégénérescence، لكن كذلك الأزمات الناتجة عن الانحطاط المتراكم، بمعنى أن نبقى أحياء. إن زيغان كهذا لمجموع الغرائز الأساسية للإنسانية، انحطاط كهذا

لمجموع التقويمات، هو نقطة تساؤل بامتياز للأحجية الحقيقية التي يقترحها الحيوان الإنسان للفيلسوف».[19]

إذا إن أحجية الانحطاط لا تختزل في ظواهر الانحلال، لأنها تمثل المنظومة الحياتية، فهي حاصل تراكمات لمختلف الانحطاط، على طول الخط التاريخي، إلى أن نبلغ العصر الحديث، الذي يمثل سيطرة حقيقية للانحطاط.

2ـ معاني الانحطاط:

إن المتأمل في مفهوم الانحطاط، يجده يطرح بحدة، إشكالية الحضارة الغربية كما قلنا سابقا، لكن ما يلاحظ كذلك، أنه تقلد معاني متعددة، ربطت كل منها، بتوجه ما أو بنظرة ما، إما أنها تبخسه، وتنظر له كمرحلة "باطولوجية"، انتقالية Pathologique، أو تعظم من شأنه كماهية الفكر النيتشوي، وكحالة مستديمة، مثلما ذهب النيتشويون الجدد. فماهي المعاني التي تقلدها مفهوم الانحطاط، وما منطلقاتها الفلسفية، التي تؤسس لوجهة نظرتهم؟

يذهب "ستيبان أودويف" إلى الحكم، على الإنحطاط في الفكر النيتشوي، مجرد نظرة حدسية، انفعالية، إذ يقول بصريح العبارة: «أن الشيء الجوهري في فلسفته رد فعل انفعالي، وصف للظاهرة المدركة حدسيا، ظاهرة تحقق عالم الإنتاج الرأسمالي في أوائل انتقاله إلى مرحلة جديدة، هي المرحلة الليبرالية [...] وأن موقفه ليس برنامج سياسي، بل من حيث هو وجهة نظر مثقف بورجوازي، ويؤمن بخلود الملكية الخاصة، وعلاقات السيطرة والخضوع، ويعني بمصير الحياة الطبيعية».[20]

كما تذهب إتجاهات جديدة في قراءة الفكر النيتشوي –وهم من يعرفون بالنيتشويين الجدد– بأن الانحطاط معنى لتطور إرادة القوة، وأن مشكلة الانحطاط، لا تربط بمجرد نزعة وجدانية، عابرة لما يحدث من تغير في المفاهيم السياسية والإجتماعية، نتيجة ظهور الفكر الاشتراكي، مثلما يعتقد"ستيبان أودويف"، بأنها مجرد هجمة شرسة موجهة ضد العامل والحركة الاشتراكية التي تهدد الرأسمالية فعلا.[21] وإنما هي معنى أعمق بكثير من ذلك، إنها تتعلق بالمسيحية، حيث يجب أن نفهم أن المسيحية، لا تبدأ من لحظة تنزيل

الكتاب -المقدس- الإنجيل، بل لها وجودا قبليا في نظر"نيتشه" مع "سقراط" و"أفلاطون"، إنها مسيحية تقع في الطرف الآخر من تاريخ أوروبا، تتجاوز الكنائس والمؤسسات الدينية، وتمتد حتى أيام "نيتشه" في هذا الفكر الحر ومع المفكرين الأحرار، الديمقراطيون، والاشتراكيون، هؤلاء الذين يرفضون الكنائس باسم القيم التبشيرية، كل هؤلاء، ومنذ الكونت "سان سيمون" في مؤلفه "المسيحية الجديدة" 1825، يعدون في نظر"نيتشه"، ممن يحاولون مصالحة عقيدة الرب بعقيدة والإنسان في إطار مفهوم التقدم والتطور بما فيهم الملحدون.[22]

إنها نظرة معمقة لمعنى الانحطاط، تعطي للنقد الجينالوجي النيتشوي بعدا أنطولوجيا، على أساس أنه لا مثيل له في تاريخ القرن (19)، ولا يضاهيه في عمقه وجذريته، أي نقد تاريخي لهذا القرن (19)، لأن هذه الحركة النقدية، حركة مضادة للتاريخ، الذي كان سائدا. وهذا ما أكسبها قدرة على تحطيم بديهية التقدم، التي فرضتها المسيحية في كل المجالات الحياتية، حتى على من يعاديها في المبدأ والفكر، هؤلاء الذين لا يعتقدون في وجود إله. إن هذه الحركة النقدية في نظر هؤلاء هي نظرة مورفولوجية Morphologique ، واصفة لتطور إرادة القوة لا تعتمد على وثيقة، أو أثر مادي، لتؤكد أن معنى الانحطاط يرتبط بالمسيحية، أي سقوط المسيحية في الانحطاط Déchéance.[23]

إن في هذا التصور لمعنى الانحطاط، نلمس أن النظرة النيتشوية كانت نظرة متأملة لتاريخ الحضارة الاوربية على خلاف وجهة نظر "ستيبان أودويف"، التي وصفته بالناقد اللاذع للأعمال السياسية التي تأتيها الطبقة الحاكمة [...] وأن من واجبه أن يفضح عجز تلك الطبقة، عن إيقاف ظاهرة التفسخ، التي بدأت تنشأ عن جملة من الأفعال القوية، الهادفة إلى منبع انهيار العالم، الذي اعتاده الناس والذي يتعرض لخط الزوال في العدم.[24]

إن مفهوم "نيتشه" للانحطاط لا يتميز في نظر هؤلاء، عن المفهوم الذي ساد في عصره، أو عن من سبقوه إلى هذا المفهوم، بل كل تميزه كامن في أسلوبه، أسلوب المحارب، المقاتل المدجج بالأسلحة لا أكثر ولا أقل، بالإضافة أنه لم يكن المفكر الوحيد الذي استشعر انحطاط المجتمع المعاصر.

لكن "مارتن هيدجر" في مؤلفه "الزمان والكينونة"، لما يتحدث عن مشكلة الانحطاط، فهو يتحدث عنها بمصطلح أشمل، ألا وهو مصطلح عقيدة العدمية، إذ ينظر لها من خلال بعدها في الزمان الأنطولوجي، الذي لا يتحدد بيوم ما، أو مكان ما، حيث يقول: «إن عقيدة العدميّة تشكل المحور المنطقي لنظام مراجعة القيم بأكملها».[25] كما يقول: «ليست العدميّة بالنسبة إلى نيتشه تصورا عن العالم مولودا في مكان ما، في يوم من الأيام، بل الحدث الأساسي المميز لتاريخ أوروبا الغربية بأكمله [...] فالعدميّة بالنسبة لـ"نيتشه" ليست مجرد عامل يسم المرحلة التي عاش فيها وحدها، أو حتى القرن التاسع عشر وحده، إن العدميّة من العصر قبل المسيحي ولا تنتهي في القرن العشرين، وهذه الظاهرة التاريخية سوف تملأ القرون الآتية، ولسوف نتواصل بالضبط حين تلاقي في دربها قوى مقاومة، إن العدميّة هي الشكل الأساسي للحركة التاريخية».[26]

يرفض "هيدجر" أن تكون ظاهرة الانحطاط حالة مؤقتة في التاريخ الأوروبي، إنها تمثل بعد التاريخ المجهول سواء في الماضي السحيق، أو المستقبل، وعليه تاريخ الفكر الأوروبي – كما يقول "هيدجر"– مدعو إلى الحث على معرفة طبيعة الوجود خطوة خطوة.[27]

إذن ليست أسباب الانحطاط تعود إلى الفكر العامي للعصر، كما ذهب "ستيبان أودويف"، وفي التحول الديمقراطي في مختلف اتجاهاته الديمقراطية والأنسية، وإنما نقرأ في رفض "نيتشه" هذه الأثقال الخانقة المتمثلة في الإله والأخلاق والعالم الآخر، التي تحدد الإنسان من الخارج، وتحده وتقوده مكبّلا [...] قوام النزعة العميقة في فلسفة ما قبل الظهيرة لدى "نيتشه"؛[28] لأنها تزيد الحرية الإنسانية باتساع جديد، يمكنها أن تقيم فيه، وسط إطار جديد، وأن تبادر في محاولات حيوية جديدة.[29]

إن مفهوم الزمان في هذا المعنى للانحطاط هو حاصل مقربة بين ما يبسطه الكائن من خلال الحاضر والماضي والمستقبل،[30] وليس معنى الزمان كعملية حسابية تفصل بين أبعاده فصلا تعسفيا. وهو ما ذهب في سياقه كل من نظر إلى الانحطاط في الفكر النيتشوي، كمرحلة باطولوجية، لا غير، وهذا ما يشكل من الانحطاط ماهية أزمة الحضارة الأوربية وحركة تاريخية أنطولوجية.

ب. العدميّة كنذير للانحطاط الحضاري الغربي.

1ـ العدميّة –Nihilisme– الدّلالة والمضمون:

إن كلمة عدم–Nihil– لفظة لاتينية، ترجمت إلى اللغة الفرنسية بضدها لا شيء Rien مشتقة من Res شيء La Chose. لما أصبحت منصوبة «Rem»، حالة النصب في الإعراب، هي الحالة التي تتهم فيها العلاقة القائمة بين الفعل والمضاف إليه مباشرة، نتيجة تأثره بأثر الفعل Action verbal. وبهذا وحيث يبلغ أثر الفعل اتهام الشيء نقول : لا يوجد شيء عدم Nihil.[31]

كما يذكر "لالاند" في معجمه أن العدمية Nihilisme Nihilismos مذهب لا يقر بالمطلق يعود به إلى القضية الأولى من قضايا "جورجياس" التي نص على أنه "لا يوجد شيء". ولا يقر بوجود حقيقة أخلاقية ولا تراتبية قيمية.

وأنه حالة يفقد فيها العقل كل معنى لسلم الأخلاق من خلال مقولة "ما الفائدة؟" ولا يمكن الإجابة إلا بالعدم.

دخلت المجال السياسي والفلسفي على يد حزب روسي عرف بهذا الاسم لأول مرة سنة 1862، يرفض أي إكراه يمارس على الفرد أي يعدمه. فريق من هذا التحزب أصبح أرهابيا، واستمرت تسميته بالعدمي Nihiliste.[32]

كما ورد في معجم "الاستهلال" لـ"بيار هيبر" ما يلي: "عدمية من اللاتينية "Nihil": لا شيء، عدم، صفر، وهي إما:

1 .بخس قيمة العالم باسم عالم ثان.

2 .بخس قيمة العالم الثاني وهذا العالم في آن واحد.

3 .محاولة للفعل من دون الإيمان بتبرير أخير للفعل في عالم آخر، عبر استبدال أساس القيم الإلهي بأساس إنساني، لكن دون تغيير أي شيء في تلك القيم بالذات.

4 . إرادة أفول وتمرد وهدم للألواح القديمة، ملازمة لإرادة بناء ألواح جديدة.[33]

أطلق "Joseph De Maistre" أيديولوجي الحركة المعارضة للثورة الواعية، من يعتنق هذا الأثر الفعلي للاشيء Rien، "باللاشيئيين" les Riénistes.[34] إلا أن المعنى الفلسفي لمصطلح العدميّة دخل الفلسفة في نهاية القرن الثامن عشر على يد "Friedrich"

«Heinrich Jocobi» على إثر الجدل الذي أثير حول مثالية "فيخته Fischte" سنة 1799 في رسالة* إلى صديقه "فيخته Fischte".[35] هذا الأخير الذي كان كذلك موضوع خطاب "Robespierre" يقول فيه: «بأي حق نهاجم الحماس بحماس آخر جديد ونخل بالحرية بإسم حرية أخرى، فتّتت الحقيقة الماهوية وتحولت إلى حشوة مضحكة».[36]

أما "جاكوبي" "Jacobi" فكان غرضه أن ينعت الفلسفة المثالية، فلسفة " Fischte فيخته" والفلسفة الكانطية، اللتين تجعلان من الذات ومن العقل مبادئ مطلقة، يشتق منها العالم، والإله، ذلك أن ميثالية "فيخته Fischte" تعطي قيمة كبيرة لفعالية الذات، وآل بها الأمر وهي بعيدة عن الإيمان إلى الوقوع في العدم، بما أنها ملزمة بأن تشتق كل شيء من الذات.[37] وهو ما يعرف بعقيدة تأليه العقل.[38]

أما الكانطية المنتصرة، فقد أفضت إلى هدم إدعاءات الميتافيزيقيا الدغمائية، وكان ينبغي للفلسفة أن تبحث عن أرض جديدة صلبة، وجدتها في يقين أولي هو "أنا أكون"، الذي هو أساس الكل، أساس بناء "العلمي الحقيقي".[39]

لكن يبدو أن الميثاليتين لم تبلغا الواقع، فكما أن ميثالية "فيخته Fischte" قد أفرغت الذات من واقعيتها، كذلك ميثالية "كانط" قد أفرغت الواقع بتمامه من جوهره بأن أخضعته للعقل.[40] وهذا ما يؤدي إلى إعدام العالم، وهذا المعنى للعدمية لا يتناقض مع موقف "نيتشه" من الفلسفة الكانطية.

لقد تم تناول هذه اللفظة تاريخيا بعدة دلالات تؤكد أن "نيتشه" لم يكن المفكر الوحيد الذي استشعر انحطاط المجتمع الأوروبي المعاصر، وهذا ما أشار له "ستيبان أودويف" في مؤلفه على "دروب زراداشت". إذ يجد الأفكار التي تشكل مضمون فلسفته، مبذورة في كل مكان، في المناخ الفكري. لذلك العصر. ولقد تم التعبير عن بعض هذه الأفكار بصورة متواقتة معه، وحتى بصورة سابقة له، وعلى الأخص من قبل "شو بنهاور".[41]

إلا أن كتابات "نيتشه" الأخيرة، قد تبدو عند بعض محلّلي الفكر النيتشوي أنها خلاصة لقراءة "نيتشه" مؤلف "Paul Bourget" (1883-1885) "بول بورجي" في عمله Essais de phycologie contemporain. إذ استخدم "بورجي" لفظة العدميّة، للإشارة إلى كتابات "Baudelaire" و"Flaubert" و"Renan" وخاصة "Standhale". إذ يعرف العدميّة «بأنها تعب قاتل من الحياة، وشعور كئيب بعبثية كل جهد».[42]

كما يقول «عن جنون الرمنسيين وكتب شوبنهاور، وتأملات سانت بيتربورج، ألا توحي لكم بأن هناك فكر واحد ينفي الحياة، هذه الأخيرة التي تظلم شيئا فشيئا معها الحضارة الغربية».[43]

ولعل هذا الوصف لا يختلف كثيرا عن إعلان "نيتشه" عن موت الإله خاصة وأن "نيتشه" قد قرأ لـ"بورجي" بل قد يكون قد استمد منه لفظة العدميّة، خاصة وأن "بورجي" قد كانت له محاولة في تشخيص الانحلال، بما هو ظاهرة، تعبر عن وهن وشيخوخة.[44]

لكن مهما يكن من أثر هذا الفرنسي على "نيتشه"، يجب أن ندرك تماما أن العدميّة لا تلخص في عدمية "Paul Bourget"، لأن "نيتشه" Nietzsche، لما يستلف مصطلح ما، فإنه يعيد تأويله بعمق شديد، مما جعل معنى العدميّة لديه، ليس حلقة من التاريخ الأوروبي رغم آلامها، نتيجة فقدان الثقة في الذات الأوروبية لكن يجب أن نعترف بها كاستدامة Etant وجود، ولا نحتفي بها كما هو حاصل في فرنسا، على أنها من قبيل الدراسات النفسية على طريقة Paul Bourget، ولا كثورة فكرية وإجتماعية، ولا حتى كما ألفناه، على أنه تشخيص لداء لم يجد بعد دواءه، أو كسم سيوجد له عن قريب مضاده الحيوي.[45] "إن العدمية هي عدوى تم انتقالها بسبب جرثومة الانتقام من الإنسان، من الحياة والتاريخ، بهذا لن يكون سوى تاريخ الانتقام، هذه الغريزة التي استولت على البشرية خلال القرون الماضية إلى حد أن الميتافيزيقا كلها وعلم النفس والتاريخ والأخلاق تحمل بصمتها".[46]

كمل يقول "نيتشه": "لقد أصبحت العدمية أمام الباب، هي أكثر الضيوف كارثية"؛[47] لأنها مشروع نفي الحياة والحط من قدر الوجود ، وهو ما أكد عليه "جيل دولوز" في كتابه "نيتشه والفلسفة".[48]

إن صحوة "نيتشه" بعدمية العالم الأوروبي متعددة ومتواجدة باستمرار، كتعدد وتواجد إرادة القوة، فالعدميّة وإرادة القوة، مفهومان لا يتناقضان، فهما ليسا مثل الوجود والعدم، بل العدميّة هي دائما إرادة قوة ومهما كان الشكل الذي تتواجد به العدميّة (فكري، سياسي، اقتصادي، تاريخي...إلخ)، إنه دائما كذلك تقويم وترتيب للقيم.[49]

وهذا ما يفسر تجاوز بعض المؤولين والمحللين للفكر النيتشوي مفهوم "مات الإله" كمفهوم جوهري في معنى العدميّة. لكن لو تأملنا مختلف العدميات التي سبقت "نيتشه" أو عاصرته سنجد أن المعنى في جوهره بقي واحدا، إذ تعود العدميّة Nihilisme، إلى كون العلاقة التي تصل اعتقاد بلحظة متعالية قد أبترت، مما يدعو إلى البحث عن المطلق في الذات الإنسانية، وهذا ما يلزم عنه تفكيك كلي لأخلاق العالم.[50] إنه الشعور بسقوط أخلاقي، أو تدهور الحضارة البرجوازية، أو أزمة الفكر الغربي، إنه إنحطاط على صورة تراجع أو تقهقر، نجده حسب كثير من المفكرين، في نظريات مختلفة في عمل فلاسفة عدد من البلدان الأخرى مثل "غ.لوبون" في فرنسا، و"س.بيرتس" في الولايات المتحدة الأمريكية، و"ف.سولوفين" في روسيا..إلخ.[51] لكن "نيتشه" كان الأول في جعل هذا المصطلح أكثر إشهارا. مؤكدا أن العدميّة Nihilisme هي ثمرة العقلية الكلاسيكية للأخلاق المسيحية، وهذا انطلاقا من مطلقية المعنى في حد ذاته، وليس من تفكيكه لنشأة العدميّة، لأن جينالوجيا الأخلاق في نظره ليس إلا جينالوجيا رد فعل للعدمية الأولى.[52] على أساس أن التأويل الأخلاقي للعالم، مبني على فرضية: أن كل إنسان قادر على التمييز بين الخير والشر، ومن خلال هذين المبدأين، بنى "نيتشه" مفهوم العدميّة الأولى من خلال كتابه "ما وراء الخير والشر"، وبناء على الفرضية الأخلاقية التي تنص على أن الغاية المطلقة والهدف غير المشروط، ما هو في نظره سوى مخبأ وحماية ضد فكرة اللا أمل واللا معنى، واللا مخرج، حيث تمنع عنهم في آن واحد أي فعل سياسي محتمل، وهذا ما ينقذهم

من عدمية انتحارية، التابعة من إحساس بالعجز واللا معنى. وبما أن الجينالوجيا هي منطق التأويل الأخلاقي للعالم، فهي تنص على أمرين: إما تراجع عن مكانتها في منظومة السلطة. وإما تأخذ بقرار صارم، صادر عن قناعة القلب المستقبلي لكل المفاهيم، التي تحملها هذه المنظومة المفاهيمية.

ومن ثمة يكون المعنى الثاني للعدمية، أي عدمية الإنسان الأوروبي الحديث، الذي يصدر عن عكس وقلب الكيفية والطريقة في التأويل الأخلاقي للعالم، متداركا هذا اللامعنى وإدخاله في حكم السلطة، هذه الإرادة الأخلاقية المبنية على اللامعنى، حيث قيمتها تنتهي عند حقيقة واحدة هي: أن الإنسان قد حرم من هذا الأساس العام الذي يوجد في المعنى المطلق (الإنسانية- الإنساني) (Humain- Humanisme)، فهو لا يوجد إنسانيا، ولا يتواجد في هذا المعنى.[53]

لقد بين "أوقن فنك" في كتابة "فلسفة نيتشه". أن العدميّة Nihilisme النيتشوية Nietzschéen، جاءت نتيجة، حتمية لهذا التاريخ، أي التاريخ الذي فسر العالم بواسطة- الميتافيزيقا الأخلاقية والأخلاق الميتافيزيقية-، أي إن العدميّة ليست داخل التاريخ الأوروبي فقط، بل حركة التاريخ ذاتها، من جهة ما هي مبدأ داخلي للانحطاط؛[54] حيث يقول "أوقن فينك": «إن "نيتشه" يريد، على عكس المثالية، التي أقصت الزمان من الوجود، أن يستعيد في الزمان الوجود بوصفه "أرضا" وأن يقيم فكرة علاقة أساسية بين الوجود والزمان»؛[55] أي وضع فلسفته في التاريخ، من خلال رصده لحادثة حلول العدميّة، كحركة تثق في كل ما هو إلهي، وكماهية مطلقة للروح الإنسانية في التجربة الصورية.[56] «إنني أسمي مجمل هذا التعليم القاتل بوجود موجود فرد مطلق غير متحول وراض عن نفسه، وغير زائل شريرا ولا إنسانيا، فكل ما هو غير زائل إن هو إلا صورة! وما أكثر ما يكذب الشعراء».[57] إن عزلة الإنسان الحديث في العالم، والتخلي عنه، نتج ولزم عنه، إصرار على جعل كل ما هو إلهي متمركز في نقطة واحدة، من معنى المطلق. وعلى حد تعبير Pavel Kouba: « لقد كف الإنسان عن أن يكون حسيا بالمعنى الإلهي»[58] مع أن الجسد يعني الواقع الأرضي لوجودنا، الواقع الوحيد في الوقت نفسه فلسنا بالعقل

والحرية، مواطني عالم لا معقول، ولسنا أعضاء في مملكة أشباح، بل نحن ملك للأرض تماما.[59] وفي هذا السياق يقول "نيتشه" «إنّ النظرة وضغط اليد والإشارة تمد جسرا بين إنسان وآخر»؛[60] أي مقولة الوعي واللغة كأداة للتواصل، ليس إلا إفراز للميثالية التي عملت طول الزمن الإنساني على الإستهتار بالجسد «إن واجبهم أن لا يغيروا طرائق تعاليمهم...»« يقول الطفل أنا جسد وروح ...أما الإنسان الذي إنتبه وأدرك فيقول «إنني بأسري جسدا لا غيره»؛[61] أي بتر هذا التقليد في الثقة بكل ما هو إلهي، وجعل الإله غير موجود» أي "الإله قد مات"، لأن هذا الأخير يحد من حرية الإنسانية بأوامره ووصاياه «فلا تطيق هذه الأخيرة- أي الإنسانية – فكرة الإله من بعد لمجرد أن تفهم ذاتها»،[62] على أنها، هي والموجود شيئا واحدا، وأن حريتها تتحقق ساعة تأخذ الزمان على محمل الجد، وتقلب النكران الميثالي للزمان، إنها تتحقق بالإرادة في الزمان وتنتمي إليه.[63]

إذا أدرك هذا الإنسان، أن في الواقع لا يرى الإله، وكل ما يراه ممتنع عنه. هذه الصدمة هي التي تفسر عدمية العالم التي لا تزال تنتمي لبنية الفكر الثنائي، للتأويل الأخلاقي، إنها نظرة أخلاقية.

إن العدميّة بهذا المعنى، لا تعمل على تحرير الإنسان، لا تسمح له الولوج إلى أحكام، يحافظ بها على كرامته. «إنها العدميّة التي تتجلى فيها الإرادة المنحطة، أي إرادة إقتدار عاجزة، تتراجع عن إثبات الحياة، وتتحول إلى نفي للحياة».[64] وهو ما أكده «أويغن فنك» حينما قال «إن جنون القرون في نظر "نيتشه" قائم في التفسير المثالي للإنسان والعالم ولابد من قلب جنون المثالية»،[65] وهذا يستلزم النظر على العدميّة بحركتين. حركة نافية وحركة إثباتية. الأولى تستدعي التعرف والتشخيص للداء بإدراك الإنسان لحقيقة طبيعته: إنّه كائن أرضي وليس سماوي، يعيش في مكان وزمان محددين، وليس وجود مجرد تابع للتجربة الصورية أما الحركة الثانية، فهي حاصل معايشة الإنسان للعدمية للولوج إلى كيفية في التقييم الذي لا يمكن تأسيسه على أصناف نهائية، في إطار المفهوم المطلق والمطلقية، بل من الضروري فهم الأنماط الأخلاقية، قبل التفكير في قلبها، أي العدميّة كإرادة قوة تعود عودا أبديا، مستديما، ولا يمكن أن تكون مرحلة انتقالية طالما أنها تقطع

كل تعميم لكل ظاهرة معتلة. وفي هذا السياق يذكر"هيدجر" في كتابه "نيتشه" Nietzsche «أن "نيتشه" لما يتكلم عن العدميّة الأوروبية لا يعني به الوضعية التي كانت حاضرة بقوة في منتصف القرن 19، ولا يعني به إنتشاره الجغرافي في أوروبا بل كان يعني به المعنى التاريخاني Historial للتاريخ الغربي، إنه يستعمل لفظة العدميّة لكي يعرف بالحركة التاريخانية التي يعد نفسه مكتشفها الأول، حيث أدرك أن هذه الحركة حكمت القرون السابقة وتحدد القرون اللاحقة من خلال مقولته "مات الإله" ومعناه أن إله المسيحية فقد سيطرته على الوجود وعلى توجيه مصير الإنسان. إن إله المسيحية يرمز لكل ما هو فوق حسي وتأويلاته...إن العدميّة هي الحدث الممتد على طول الحقيقة».[66]

إن العدميّة النيتشوية من منظور"هيدجر" هي إذا حاصل ميتافيزيقا إرادة القوة، متافيزيقا الإنسان كحيوان أي التأكيد العدمي للإنسان الأعلى الذي يعدم ماهية الإنسان، وجانبه السلبي هو العقل.[67]

لكن المتأمل في مختلف هذه الدلائل والمضامين التي تناولت العدميّة كمفهوم، سيلاحظ حتما الترابط الجدلي بين مفهومي الإنحطاط والعدميّة، سواء كان لدى محللوا الفكر النيتشوي، أو في النصوص النيتشوية، فهل هذا الترابط الجدلي هو حركة منهجية حاصل عدوى منطق الحداثة وما عرفه من أسماء، صناع للفكر الجدلي، مثل "هيجل"؟ أم أنها الصورة الواقعية لأزمة الحضارة الغربية وأن هذا الترابط الجدلي، مجرد تشخيص باطولوجي Pathologie إلى أي مدى؟

2ـ جدليّة الانحطاط والعدميّة:

إن حديث "نيتشه" عن الانحطاط Décadence، كان يسعى من ورائه، كشف وجمع الشروط التي ساعدت على وجود هذه الظاهرة، والتي حضرت للغارة على العدميّة. وهذا التعبير لا يسمح – كما قلنا سابقا – بالربط الضيق بين الانحطاط والمرادف البيولوجي الطبي لها: الانحلال Dégénérescence، رغم أن "نيتشه" ينظر له كمرض من زاوية ما، لما يحلل بعض الأعراض الاجتماعية، بمفردات إكلينيكية، لكن دائما من منظور فلسفي للحياة، كإرادة قوة، لتشخيص الداء والدواء.[68]

إن الانحطاط في نظر" نيتشه" لا يؤدي إلى زوال الحضارة الإنسانية، لكنها تتحول إلى ظاهرة قاتلة، تغزو كل مجموعة الطبقات والمؤسسات والشعوب، فتتداخل بقوة وفكرة الإنسانية Humanisme،[69] وهذا ما لمسناه مع "هيجل" مثلا في مفهومه للتاريخ الكلي أو العالمي، أو ما يصفه "نيتشه" في مؤلفه إرادة القوة: «الحداثة مقارنة بالتغذية، والهضم» أين يصف العصر«بالكونية، كونية الطعام، والأدبيات، والصحف، والأشكال، والأذواق [...] وهذا ما يفضي إلى ضعف قدرة الجهاز الهضمي على الهضم..».[70]

أما العدميّة في هذا المستوى، فتعمل على قطع، وبتر كل تعميم لظاهرة الانحطاط من خلال مقولة "مات الإله" حتى تعدم مجموع الميثاليات، والقيم التي تضمن سيطرة الانحطاط.

إن العدميّة مؤسس خفي يتوارى في بعض الطبقات الاجتماعية، في بعض مناطق المعمورة، لكن أشكال الانحطاط تخونها، وتطفو على السطح.[71] وفي هذا السياق يصرح "نيتشه" في مؤلفه Crépuscule Des Idoles «إن كل فلسفة معدمة [...] لو أن كل فيلسوف قادر أن يكون عدمي، فإنه سيدرك ذلك، لأنه سيجد العدم خلف كل المثاليات».[72] سيجده في كل الجهاز المفاهيمي للحياة الاجتماعية، حتى مفهوم الزواج- يقول "نيتشه": «لم يعد يؤسس على الحب، بل يؤسس على النوع، على الملكية...».[73] وهذا التعميم للانحطاط، يجعل منه "نيتشه" يمثل قلق الحضارة، الذي اهتم بها كذلك "سيجموند فرويد "Freud" ، لكن من منظورات أخرى.

أما مع "نيتشه" فقد أخذ بعدا فلسفيا، ككارثة ناتجة عن التأويل الفلسفي للحياة، في أخص خصوصياتها الفطرية. وهو ما يعتبره "نيتشه" اختلال في الفطرة، وكي نعيد توازنها، الإنسان المنحط، يتجه نحو العقل، تحت وطأة الأمر الأخلاقي، والإيمان المطلق بالمنطق. هذا "العلاج" والطب، لا يمنع المنحط من البقاء في أعماقه ككائن انفعالي، لأن المنحط يؤدي إلى تفتيت الأشكال، وفقدان القدرة على التوليف، وتحطيم الإرادة والعزائم، وضرب الترابط الغريزي بالبحث عن نسيان آلامه في أشياء اصطناعية،*[74] «إنه الإنسان الذي تنبع حيويته، من إرادة الانتقام [...] لأن من يتألم، يرفض مقابل آلامه

عسل الانتقام (لذة الانتقام)»[75] لكن كيف استطاع الضعفاء أن يؤثروا، في الأقوياء، حتى أصبح الانحطاط مرض الحضارة الإنسانية بأكملها؟

يرى "نيتشه"، أن التربية هي الوسيلة التي وظفت لتعميم الانحطاط، فأصبحت مدرسة للمرض، وهذه البيداغوجيا، تخفي في طياتها تطور أخلاقي للإنسان، حيث عملت على ترويضه، بمعنى آخر تحويل طاقاته الحيوية، والغريزية إلى حيوان القطيع.

يحدث كل هذا تحت وطأة وغطاء أيديولوجية الخطيئة.[76] «التي جعلت من هذا الإنسان، مسالم، ضعيف أمام نفسه و أمام الآخرين، واعي لضعفه، لخطيئته، إنه النموذج غير المرغوب فيه.».[77]

إن "موت الإله" في بعض منظورات "نيتشه" لا يشكل معنى من معاني تقدم الفكر الملحد للعصر الحديث، وإنما يعني العودة إلى الفكر المسيحي وإعادة بعث الإله بنكهة أخرى، بالضبط كما جاء في الفلسفة الهيجلية التي بعثت مفهوم الإله بنكهة جدلية،[78] وغارة العدميّة جاءت لتهدم هذه الأيديولوجيا التي أسس عليها عرش الانحطاط. «إن القيم العليا تنهار، الأهداف غير موجودة، لا توجد إجابة على هذا السؤال ما الفائدة؟».[79]

لكن "نيتشه" يحذرنا بأن هذا العدم، ليس كله مطلق في سلبيته، وفي تعارضه مع الكائن، لأن عدم القيم، تردنا إلى تأويل العادي والطبيعي للحياة،[80] بل إنه لا يحده بعدم Nihil «إنه كل ماهو تافه، واهم مريض، أي كل ما أفرغ من وجوده الواقعي».[81] لكنه سيدفعنا إلى إحصاء، أصول هذا الانحطاط حتى نستطيع أن نبدع القيم التي تحتفي بها الحياة المبدعة.

إن "نيتشه" يرسم لنا برنامجا مضاعفا للعدمية: أولا إعدام الانحطاط في أصوله التي تؤسس لعرشه، من خلال تجاوز الميتافيزيقا،* ثم قلب كل القيم، حتى يمكن ربط الإنسانية المنحطة بالإنسان الأرقى، وهو ما يشكل المفهوم الحقيقي لفعل العدميّة، لأنه فعل خلاق ومبدع، فعل الحياة «كل الآلهة ماتت وما نريد الآن هو الحياة للإنسانية الأعلى،

هذه هي إرادتنا العليا في يوم من الظهيرة الكبرى».[82] وعلى حد تعبير "مارتن هيدجر" الإنسان الأعلى يعدم ماهية الإنسان.[83]

ومن خلال هذا البرنامج الذي يكشف عن الأصل الأيديولوجي اللاهوتي للحداثة، في أزمة كوسمولوجية، لعدمية جذرية في الغاية المخطط لها، وجدلية في جهازها المفاهيمي. فلا غرابة أن تتضارب الآراء حول ما إذا كان الانحطاط يرادف العدميّة، أم أنه يأخذ بعدا باطولوجيا يصف من خلاله وضعا مرضيا مؤقتا للحضارة الأوروبية، وأن العدميّة مفهوم أوسع من الانحطاط، يتحقق بشكلين أساسيين هما العدميّة السالبة، والعدميّة الموجبة.

وهذا ما جاء على لسان "جيل دولوز" لما ربط بين العدميّة والانحطاط كنفي للعدمية وسلب لإرادة الاقتدار في قوله: «إن العدميّة والنفي تجعلنا نتعرف إلى إرادة القوة بصفتها تحمل فعل النفي بما هو صفة من صفات الإرادة [...]، وأنه يسحق العالم ويحوله إلى ظاهرة مرضية ويحط من قيمة الحياة بأسرها»؛[84] لأن الحياة تنفخ في الدين إرادة نفوذ القوى الارتكاسية إلى النصر، أي لن تنتصر القوى الارتكاسية أبدا من دون إرادة تنمي افسقاطات، وتنظم الأوهام الضرورية، وهم عالم ورائي في المثل الأعلى الزهدي، ما يسمح بالحط من قدر الحياة وكل ما هو فاعل في الحياة، ما يعطي العالم قيمة ظاهر أو عالم عدم، كان وهم عالم آخر قد بات حاضرا في الأوهام الأخرى كالشرط الذي كان يجعلها ممكنة، وعلى العكس تحتاج إرادة العدم إلى القوى الارتكاسية، ليس فقط أنها لا تحتمل الحياة إلا بشكل ارتكاسي، بل هي تحتاج أيضا للحياة الارتكاسية، كما للوسيلة التي ينبغي للحياة أن تناقض بها نفسها، وتنفي نفسها وتعدم نفسها، فلا تؤول القوى الارتكاسية إلى شيء إذا فصلت عن إرادة العدم ولا تؤول إرادة العدم من دون القوى الارتكاسية.

إن القوى الارتكاسية لها قرابة مع العدمية والتعبير عن العدمية كمحرك للقوى الارتكاسية.[85]

كما يؤكد «ميشال هار» Michel Haar، على هذه العلاقة الجدلية، لما يقر بأن «نموذج الإنسان الذي يمثل الضعف في أقصى مداه، ووجوده، يرمز إلى العدميّة المعتنقة، لقيم

القطيع في شكلها السالب».[86] هذا النفي للحياة هو ما تلخصه عبارة «إن هذا العالم لا يساوي شيئا، ولاشيء له قيمة في هذا العالم».[87]

إن الانحطاط هو الأصل هو تعبير عن الإرادة المنحطة وتعبير عن إرادة فاقدة للقوة، وفي هذا السياق يقول "نيتشه": في" إرادة القوة": «العدميّة ليست سببية، إنما نتيجة منطقية للانحطاط».[88]

إن"نيتشه" كما جاء على لسان "هيدجر" قد استغل كل معاني، ما يسميه"عدمية" Nihilisme، في مختلف إتجاهاته، ومستوياته، وأشكاله الأساسية.[89] ويدعو "هيدجر" إلى ضرورة التفكير بفكر العدميّة النيتشوية، كمعرفة لمفكر فكر في إطار انفتاح التاريخ الكلي، وتأكيده على حقيقة أساسية، هي عجز فلسفة الكليات، والمطلقيات، على تقنين التاريخ، وعلى تقدمه، في خط مستقيم؛ لأن هناك فكرة التاريخ المجهول، الذي يتوارى خلف إرادة القوة.[90] فهذه الأخيرة مؤسس لتاريخ الغرب، فهي المبدأ الوحيد المؤسس للقيم، إنها شرط كل موجود في الوجود، مبدأ جديد لمنظومة قيم جديدة.[91]

إن قلب القيم هو ما يشكل في نهاية الأمر اكتمال ماهية العدمية، في تأويل "هايدجر" لمصطلح العدمية عند "نيتشه"، فليس نظرية ولا مذهب وإنما مساق لقلب القيم العليا وتدمير هذه القيم الذي يعد في آن واحد تدمير للحقيقة.

وخلاصة القول، إن العدمية ليست مرحلة باطولوجية ولا حدث تاريخي من بين الأحداث، وإنما الحدث الذي يؤسس لتاريخ الفكر الأوروبي، حيث تفقد الميثالية قوتها التاريخيّة في التأسيس لقيمها، وهو ما يمثل الجانب الإثباتي والمؤشر الإيجابي للعدمية المنفتحة على أشكال متنوعة حية لها معنى دون أن يكون أصل هذا المعنى مرتبط بمعنى أخير ومطلق. لأن العدمي الحقيقي هو من يتقبل اللامعنى ليس كنفي فقط بل كذلك كتعبير إثبات متعال، فلا يمكن رفض العدمية لأنها رؤيا جديدة للعالم، وكأنها ضرورة قصوى لتذوق هذه الفاكهة.

كما نستخلص أن العلاقة الجدلية بين العدميّة، كنتيجة، والانحطاط كأصل، تجعل من الأولى- العدميّة- هي الحدث الممتد على طول الحقيقة؛[92] لأن العدمية ليست أبدا محض ظاهرة الانحطاط، إنها في الوقت ذاته وعلى الأخص سيرورة أساسية للتاريخ الغربي، منطق داخلي لهذا التاريخ وعلى حد تعبير "هايدجر": "إنها الحركة الأساسية للتاريخ التي لا تظهر إلاّ في شكل العمق المنتشر الذي لن يسبب سوى كوارث عالمية".[93]

الإحالات:

[1] ستيبان أودويف: على دروب زراداشت: ترجمة، الدكتور فؤاد أيوب، الطبعة الأولى، سنة 1983، ص31.

[2] فريدريك نيتشه: هكذا تكلم زراداشت، ترجمة فليكس فارس، دار القلم، بيروت، لبنان، دون سنة. محادثة بين ملكين، ص275.

[3] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4] ستيبان أودويف: على دروب زراداشت، مرجع سابق، ص33.

* الانحطاط Décadence -Décline, Décadanza, Decademento، هو حاصل في المعنى المقلوب، إنها الحالة الناتجة عن هذا القلب لما كان يؤسس ويؤلف التقدم

Lalande André : Vocabulaire technique et critique de la philosophie, 2éme édition Quadrige, PUF, 2006, P206.

[5] Jean Le Franc : Comprendre Nietzsche, CURSUS, Armand Colin, Paris, 2005, p146.

[6]Nietzsche (F): L'antéchrist, trad. Dominique TASSEL, Union Générale, paris .1967, §15, p24. «or une pareille prédominance, livre la formule de décadence».

[7] Ibid. : APH17, p26.

[8] Ibid.

[9] الشابي نور الدين: نيتشه ونقد الحداثة، ط1، دار المعرفة للنشر- القيروان، 2005، ص159.

[10] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[11] Jean Le Franc : comprendre Nietzche, op.cit., p 145.

[12]Ibid. : p146.

[13] فريديريك نيتشه: هذا الإنسان، ترجمة، مجاهد عبد المنعم مجاهد، سلسلة تراث الفكر الإنساني، دار التنوير، سنة 2009، شذرة (1) لماذا أنا حكيم جدا-، ص23.

[14] Jean Le Franc : comprendre Nietzche, op.cit., p 147.

[15] Heidegger (M): être et temps, trd.fr, François Vizin, Paris, Gallimard, 1986, livre2, pp34.37.

[16] Nietzsche (F) : L'antéchrist, op.cit., préface.

[17] Ibid.: p 147.

[18] Nietzsche (F) : volonté de puissance II, trad. Geneviève Bianquis, Gallimard, 1995, p 63.

[19] Fragments posthumes XIV Printemps 1888. 14 [75], p55, cité in L'herne Nietzsche dirigé par Marc Cripon, Paris 200-2005, p44 Textes de Nietzsche.

[20] ستيبان أودويف: على دروب زرادشت، مرجع سابق، ص 26.

[21] المرجع نفسه، ص 27.

[22] Jean Le Franc : comprendre Nietzsche, op.cit., pp 145.146.

[23] Ibid: p 145.

[24] ستيبان أودويف: على دروب زرادشت، مرجع سابق، ص27.

[25] Heidegger (M) : Etre et temps, op.cit., p 34 livre I.

[26] Ibid. p.35. liver I

[27] Ibid. p.34. liver I

[28] أويغن فنك: فلسفة نيتشه: ترجمة الياس البدوي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد،1974، ص 67.

[29] المرجع نفسه ، ص 68.

[30] Heidegger (M) : Question III et IV , trad, jean Beaufret, François Fédier, Gallimard, 1966 , P 214.

[31] Jean Pierre Faye. Michèle Cohen- Halimi : L'Histoire cachée du nihilisme, Jacobi, Dostoïevski, Heidegger, Nietzsche, édition la Fabrique 2010, p 193.

[32] Lalande André : Vocabulaire technique et critique de la philosophie, op.cit., p 681.

[33] بيار هيبر سوفرين: زراداشت نيتشه، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1994، معجم الاستهلال، ص 152.

[34] Jean Pierre Faye. Michèle Cohen- Halimi : L'Histoire cachée du nihilisme, Jacobi, Dostoïevski, Heidegger, Nietzsche, p193.

* نص الرسالة: «حقيقة يا صديقي "فيخته" إذا كنت أنت بالذات أو أحدا آخر تفضل تسمية chimérisme، ما أراه أنا معارضا ومقابلا للمثالية التي عنفتها كعدمية، وهو ما لا يتعارض معي».

[F.H.Jocobi, Œuvres 3T, Leipzig, 1816, P44, in Jacobi et Fichiste, publié pour la première fois en automne 1799.]

[35] Pavel Kouba : Signe du nihilisme, l'Herne Nietzsche, op.cit., p 269.

[36] Jeau pierre Faye, Michel cohen-Halimi : L'Histoire caché du nihilisme, op.cit. .p 194.

[37] نور الدين الشابي: نيتشه ونقد الحداثة، مرجع سابق، ص 130.

[38] Jean Pierre Faye, Michel Cohen- Halimi : L'Histoire caché du nihilisme, op.cit. P194.

[39] نور الدين الشابي: نيتشه ونقد الحداثة، مرجع سابق ص 131.

[40] المرجع نفسه ، الصفحة نفسه.

[41] ستيبان أودويف: على دروب زرادشت، مرجع سابق، ص 27.

[42] Jean Le Franc : comprendre Nietzche, op.cit, pp155-156.

[43] Ibid.

[44] نور الدين الشابي: نيتشه ونقد الحداثة، مرجع سابق، ص132.

[45] Jean Le Franc : comprendre Nietzche, op.cit., p157.

[46] Nietzsche (F) : La volonté de puissance, op.cit. III livre.

[47] Nietzche(F) : Le nihilisme européen : introduction et traduction par Angel Krimer Marietti, édition, Paris, P31.

[48] جيل دولوز: جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت–الحمراء، ط2، 2001، ، ص47.

[49] Jean Le Franc : comprendre Nietzche, op.cit., pp158 .159.

[50] Pavel kouba : Signe du nihilisme, Lherme Nietzsche. Op.cit., p 269

[51] ستيبان أودويف: على دروب زراداشت، مرجع سابق، ص 27.

[52] Pavel kouba : signe du nihilisme, Lherme Nietzsche, op.cit., p269.

[53] Ibid : p 270.

[54] نور الدين الشابي: نيتشه ونقد الحداثة، مرجع سابق، ص ص 132–133.

[55] أوقن فنك: فلسفة نيتشه، مرجع سابق، ص 86.

[56] نور الدين الشابي: نيتشه ونقد الحداثة، مرجع سابق، ص 132.

[57] فريديريك نيتشه:

Nietzsche (F) : Ainsi parlait ZarathoustraI, Trad. Genièvre Bianquis, Aubier, Flammarion, des visionnaires de l'an- de-la, p 94. .52 .الترجمة بالعربية، ص

[58] Pavel kouba : signe du Nihilisme, l'herme Nietzsche, op.cit. , p 271.

[59] أوقن فنك: فلسفة نيتشه، مرجع سابق، ص 87.

[60] فريديريك نيتشه: العلم المرح، ترجمة وتقديم حسن بورقية ومحمد الناجي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2000، شذرة 354 عن عبقرية النوع، ص 217.

[61] فريديريك نيتشه: هكذا تكلم زرادشت، مصدر سابق: المستهزئون بالجسد، ص 57.

[62] أوقنفنك: فلسفة نيتشه، مرجع سابق، ص 85.

[63] المرجع نفسه ،ص ص 86،87.

[64] نور الدين الشابي: نيتشه ونقد الحداثة، مرجع سابق، ص ص 133-134.

[65] أوقن فنكك: فلسفة نيتشه، مرجع سابق، ص 84.

[66] Heidegger (M): Nietzsche II, Trad. Pierre Klossowski, NRF, edition Gallimard, 1971, p 32.

[67] Jean Pierre Faye, Michel Cohen- Halimi : L'Histoire caché du nihilisme, op.cit. p 203.

[68] Jean Granier : Nietzsche, éd. Delta, Paris, 1994, p 26.

[69] Ibid.

[70] Nietzsche (F), La volonté de puissance II, op.cit., Para 129, p 62.

[71] Jean Granier : Nietzsche. Op.cit., p 27.

[72] Nietzsche (F) : le crépuscule des idoles, suivi le cas de Wagner, trad , Henri Albert , Flammarion, 1985 Para 39, p 159.

[73] Ibid : Para 39, p 159.

* الأشياء الإصطناعية هي ما تمثل كل رقي حضاري مادي كان أو بريستيج Prestige وفي هذا السياق يقول "نيتشه" في إرادة القوة، الكتاب الأول شذرة، ص 63 «البذخ مؤسسة أولى للانحطاط».

«Le luxe est un des premiers instituts de décadence»

[74] Jean Granier : Nietzsche. Op.cit., p 26.

[75] Nietzsche (F) : crépuscule des idoles, op.cit., p161, cité dans Nietzsche - Jean Granier, P27.

[76] Jean Granier: Nietzsche. op.cit., pp26 ,27.

[77] Nietzsche (F) : Volonté de puissance I, op.cit. p ,187.

[78] محمد الشيخ : نقد الحداثة في فكر نيتشه، الطبعة الأولى، بيروت، 2008، ص ص 100 – 139

[79] Nietzsche (F):Volonté de puissance II, op. cit, Para 81, p 44.

[80] Jean Granier : Nietzsche, op.cit., p 28.

[81] Nietzsche (F) : crépuscule des idoles, op.cit., Para 39, p 159.

* إن فكرة تجاوز الميتافيزيقا كطرح نتشوي، قضية إشكالية، فإذا نظرنا إلى التجاوز كماهية للفكر ومسألة الحقيقة التي لا ترتبط بالمنهج، ولا بمجموع الملكات السيكولوجية، بل بالقيمة والمعنى المتولدة عنهما كإرادة قوة ، فإن "هيدجر" يرى إنحطاط حقيقة الموجود، جاء وكأنه نهاية للميتافيزيقا. إكتمل هذا الإنحطاط بانهيار عالم المثل، وإجتياح الأرض. هذا الانهيار والاجتياح وجد إكتماله المناسب في إنسان الميتافيزيقا- الحيوان العاقل-. لكن الميتافيزيقا مفكر فيها خارج حقيقة الموجود (كإعفاء) Une Dispense وإذا إفترضنا التجاوز كفعل فلسفي، فالأفضل أن نقول «الميتافيزيقا شيء مضنى وولى»

«La métaphysique et du passé»

-Heidegger (M) : Essais et conférences, trad. André Preav, éd. Gallimard, 1958, pp80-81.

[82] Nietzsche (F): Aussi parlait Zarathoustra, op.cit. , Para3, p 175.

[83] Jean Pierre Faye et Michel Cohen-Halimi : L'histoire du nihilisme caché, op.cit., p 203.

[84] جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، مرجع سابق، ص 221.

[85] المرجع نفسه، ص ص185-186

[86] Michel Haar: Nietzsche et la métaphysique, Gallimard, Paris, 1993, p 48.

[87] Ibid: p 32.

[88] Nietzsche (F) : volonté de puissance II, op.cit., Livre1, p27.

[89] Heidegger (M): Nietzsche II, op.cit, P40.

[90] Ibidem.

[91] Ibid, p p220-222.

[92] Ibid: p 32.

[93] Heidegger (M): chemins qui Mènent nulle port, trad., WOLF GAXIG Brokmeier, GALLIMARD, 1998, P263.

تاريخ الإيداع/ 13/ 02/ 2017